

الدكتور زكي مبارك

« لو شرب الصخر من رحيق الوجود بعض ما شربت لتحول إلى أوتار
وقلوب . فكيف أصمت والدنيا كلها تتأرجح من حولي بأنفاس الأزهار
والرياحين ، ولي قلب يتشوق إلى أفنان الجمال تشوق الشمس
إلى أنداء الصباح » .

زكي مبارك

بصراحة ، ان « زكي مبارك » كان مثال النشاط والطموح
والنبوغ . كان رحمه الله مبارزاً شجاعاً لا يهاب النقد
ولا يبالي الزلزال ، فيقتحم الميدان مقارعاً ومناضلاً ، حتى
لم يسلم من نقده أديب كبير أو صغير . فالمساجلات التي دارت
بينه وبين أساطين الأدب ، اكتسبت الأدب العربي ثروة
زاخرة أنارت الطرق أمام الشباب ، والمساجلات التي دارت
بينه وبين صفار الأدباء ، أبرزت هؤلاء إلى مكان مرموق
بعد أن كانوا منسيين في زوايا المجتمع .

ولكن تلك الشعلة المنيرة ، وذلك الطموح العظيم ،
وهذه المساجلات القيمة ، زالت من الوجود عندما بدأ
اليأس يتسرب إلى قلب الرجل العظيم نتيجة للعقوق .
إن العقوق الذي لاقاه زكي مبارك في حياته جعله ينطوي
على نفسه ، ويترك هذا الميدان الرطيب ، ميدان الأدب الرفيع
إلى ذلك الميدان الضيق . . ميدان الجرائد التافهة ، الذي
لا يؤمه سوى طبقة محدودة من القراء الذين ينفسون عن
أنفسهم بقراءة الأدب الخفيف .

ترك زكي مبارك الميدان في عز مجده الأدبي منذ ثمان
سنوات ، في وقت كان فيه الأدب في أمس الحاجة إلى
روائعه . وعجب قراؤه ومحبيه وظنوها فترة استجمام تنتهي
بعد أيام أو شهور . وإذا به يطلع عليهم بعد مدة في صحف
لا تمت إلى الأدب الرفيع بنسب أو صلة . فأسفوا ونال منهم
الحزن منالاً عظيماً ، وأيقنوا عند ذلك أن العنديل الذي
غناهم أروع الأناشيد قد أصبح مقطوع الجناح ، يرسل
آهات الألم ولا من يجيب ، ويستجير من وخزات الظلم
ولا من يجير .

واليكم لوناً من ألوان العقوق الذي منى به الفقيد .
فهو يقول عن كتابه « النثر الفني » وهو من الكتب

وأخيراً صحت القيشارة الخالدة التي غنت روائع الألحان ،
وسكت القلب الكبير الذي كان يتشوق إلى أفنان الجمال ،
وانسكس اليراع الذي أقام الدنيا وأفعددها ، وارتاح العقل
الجبار الذي سما بصاحبه إلى سماء لا يطار لها على جناح .
لقد مات زكي مبارك . ومات بموته أديب أكسب اللغة
العربية أروع حلل البيان ، وزود المكتبة العربية بتحف
غراء ستبقى خالدة على مر الأزمان . مادام للغة العربية قراء ،
وما دام في البلاد العربية منصفون .

ان « زكي مبارك » لم ينصف في حياته . أما كيف كان
ذلك فهو شيء ليس من اختصاصنا . ولكن الذي نعرفه أن
نفس الرجل كانت أكبر من جسمه بآلاف المرات ،
فشقي في الدنيا شقاء مرّاً . ويحد القارئ صدى ذلك الشقاء
في كل ما كتبه ذلك الهزار الصريع . وقديماً قال المتنبي :

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

نال زكي مبارك الأجازات العلمية العظيمة بإدارة
واستحقاق بعد أن سهر السنوات الطوال في غفوات الليل
البهم دون ملل أو اعياء ، سهر في القاهرة ، وسهر في باريس
وسهر في بغداد . عكف على الطروس ، وهو طالب علم ،
بينما كان زملاؤه يعكفون في المقاهي والمتديات . وغازل
العلم والعرفان بينما غازل غيره الغيد الحسان . واتخذ اليراع
خلافاً وفيّاً بينما اتخذ الآخرون الزد وغيرها من أدوات
الهمو والضلال . وكانت النتيجة أن نال الدكتوراه ثلاث مرات
متتالية من جامعة السوربون ومن الجامعة المصرية العظيمة .

ولكن هل استسلم للراحة والاستجمام بعد ذلك العمل
التواصل والنصر المبين ؟ وغادر روض الأدب والفلسفة
بعد ما نال الدرجات والشهادات ؟ ان كتب الفقيد تغنيا
الرد على هذا السؤال . بل ان رسالة الزيات الخالدة تعلن لنا

الأدبية الخالدة (*) « هل تعرفون كيف استقبلته وزارة المعارف الموقرة؟ اشترت منه « أربعين » نسخة فقط ، لأن مؤلفه ليس له في الحكومة المصرية عم أو خال . وجاءت لجنة اختيار الكتب بوزارة المعارف فأهملته وقررت غيره من الكتب التي لا يمكن أن تنسى عن كتاب « النثر الفني » وكذلك الحال مع كتبه الأخرى « عبقرية الشريف الرضى » و « التصوف الإسلامي » و « الأخلاق عند الغزالي » وغيرها من الكتب القيمة التي سدت فراغاً في المكتبة العربية . فهل يلام إذن إن شكا من دهره الخنون . ولم يدم عجب القراء طويلاً ، لأنهم ألفوا مثل هذا العقوق في الشرق في كل يوم بل في كل رفة جفن . وما أجمل قول شاعر العراق محمد مهدي الجواهري :

قَتَلَ الْعُقُوقُ : فَبِكُمْ قَتَلْنَا نَابِعاً

بين البيوت وكم وأدنا قائدا
لكن الذي جعل القراء يأسفون
كثيراً وقوع هذا العقوق في مصر .
مصر العظيمة التي أضحت كعبة طلاب العلم والأدب . مصر الخالدة التي يأنس الأديب في جنباتها ويأمن من غوائل الزمن . مصر التي فهمت معنى الثقافة فأخذت تنشر دررها ولآليها في أرجاء البلاد العربية . وما تلك الدراري والآلئ إلا كتب أبنائها البررة التي أنارت السبل أمام الشباب ، فأضاءت لهم ما حاولهم فمشوا بثبات وقدام .

مصر التي ترحى حقوق الأدباء والعلماء مهما كانت جنسياتهم ومذاهبهم . مصر تعق « زكي مبارك » الابن البار الذي سجل لها في تاريخ الأدب مجداً لن ينكره ناكمهما بلغ من الجحود ، ووهب قلبه وعقله لخدمتها في القاهرة وبغداد وباريس وغيرها من البلاد العربية التي حط فيها عصا الترحال ، ولم يدخر وسعاً في تمجيد مصر في أشعاره الفرر وكتاباتة الدُرر ؟ ؟ ؟ إن التاريخ يقف أمام هذه الظاهرة حائراً مذهولاً . زكي مبارك العظيم يموت وهو مدرس بسيط . وهو الرجل الذي ألف خير الكتب وأنفسها . بينما تسنم غيره المناصب العالية ، وهم لا يستطيعون الا تيان بمشار ما أتى به ،

(*) نال بهذا الكتاب درجة الدكتوراه من جامعة السوربون

في باريس .

ثم ما هذا العقوق بعد موته ؟ أين المقالات والقصائد التي يجب أن تقال في رثاء هذا الببل الصداح ؟ بل أين الأدباء الذين وهبهم زكي مبارك قلبه وروحه وجسمه ، وأثار عقولهم بعد ظلمة وقلوبهم بعد عمى ؟ بل أين مجلة الرسالة الخالدة التي استنفدت قوى الأديب الراحل ، وسلبت لبه وقلبه وروحه وجعلته يسامر النجوم ويستقبل الفجر وهو منسكب على أوراقه في سبيل خدمتها ؟ وأين الزيات العظيم الذي خاطبه يوماً ما زكي مبارك « تحيى إليك وإلى السامرين في نادى الرسالة من كرام الأصدقاء . وتحيى إلى القاهرة التي لا تقع فيها العين إلا على نجم أزهى أو كوكب لماع ؟

ان قصر الأدباء في حق زكي مبارك وقصرت جميع المجلات أيضاً . فاننا نرجو من أستاذنا الكبير أحمد حسن الزيات أن ينصف صديقه الطيب القلب ، الذي لم يخالفه الحظ ، لأصراحتة المتناهية . وتكالت عليه شتى القوى فأحالته شخصاً يائساً محطماً القلب ، حتى غادر الحياة وهو يذرف الدموع الحرار على ما ناله من ظلم الزمان وغدر الأيام .

ان الزيات العظيم الذي قال في حق زكي مبارك ، أيام أن كان في عنفوان سؤدده « وزكي مبارك — ان أردت



(الرحوم الدكتور زكي مبارك)

فيه كلمة الحق — مجاهد باسل من المجاهدين القلال الذين شقوا طريقهم في الحياة بالقوة ، وأخذوا نصيبهم من المعرفة بالسكد ، وأحلوا أنفسهم محلهم اللائق بالصراع . وهو أحد الأدباء الذين لم يقم مجدهم الأدبي على الظروف والحظ ، وإذا قد وقع في حياته فهو الحظ المنكود : لأنه تعلم بككدح قلبه ، وتقدم بفضل جهاده ، ثم كانت الظروف التي تساعد غيره تلج عليه بالنكران والجرمان من غير هواة » هو نفسه الزيات الذي يستطيع إحياء ذكرى زكي مبارك وأدبه من جديد على صفحات الرسالة الغراء بكتابة مقالات عن فنه وعلمه وأدبه . وأتأثرى أن خير أديب يستطيع القيام بهذه المهمة من أسرة الرسالة — بعد الزيات —